دَور علَماء التّفسير واللّغويين في التّأسيس
لِنظريّة النّقد اللّغويّ وتَطويرها
مُرتكَزات النّشأة وآفاقُ الكونيّة

د. عبد الفضيل ادرواي(*)

الملخّص:

ترمي هذه الورقةُ إلى الكشفِ عن الدّور الرّائد الّذي قام به المفسّرون والمشتغِلون بالدّراسات الإعجازيّة وعلوم القرآن عمومًا، في التّأسيس لنظريّة لغويّة في التّراث العربيّ الإسلاميّ، من خلال جهودٍ جبّارة ومتنوّعة نشطَت منذ القرن الثّالث الهجريّ وتأصّلت فيما بَعده، كانت غايتها الكبرى خدمة القرآن الكريم وتوصيله للنّاس، ومحاولة ضبط دلالاته، وتحصين الفهم وعمليّات التّأويل، بما يحفظ للأمّة هويّتها ويَصون عقيدتها من تيّارات الانحراف والتّشكيك والتّأويل المغرِض. ما أثمرَ اجتهاداتٍ تنظيريّة وتطبيقيّة رائدةٍ في التّعامل مع اللّغة العربيّة، من خلال مَباحث في النّحو والبلاغة، والنّقد اللّغويّ، تحققت من خلال مستويَين من النّظر إلى اللّغة:

-مستوى أوّل هو مستوى اللّغة المعياريّة المباشرة أو مستوى القاعدة والأصل،

-ومستوى ثانٍ، هو مستوى اللّغة الجماليّة أو اللّغة الثّانية غير المباشرة، أو مستوى الفرع والانزياح.

ومن المستويَين، يمكِن استلهام ملامح نظريّة لُغويّة في التّراث العربيّ الإسلاميّ، من خلال جهود علماء القرآن والمفسّرين، متّسمة بقدر من المرونة والقابليّة للتطوّر، ومنفتحة على استيعابِ الاجتهاداتِ والمساهماتِ البشريّة الممكنة.

(*) كلية الآداب والعلوم الإنسانية
جامعة عبد المالك السّعدي، تطوان، المغرب.

الكلمات المفتاحية:

النظريّة اللّغوية – اللّغويّون – المفسّرون – جَماليّة الشّعر- الجودَة- اللّغة المباشرة – الانزياح – الأصل.

المقدّمة:

نَسعى من خلال هذه المساهَمة إلى الدّفاع عن وجهة نظَر ترى أنّ العلماء الذّين اشتغلوا بالنّصّ القرآنيّ وبالعلوم المحيطة به، كالفقهاء واللّغويّين والنّحاة والبلاغيّين، والعلماء الذّين اشتغلوا بالتّفسير وبالبحث في إعجاز القرآن وفصاحته وبيانه، وغيرها من الاختصاصات والفروع المعرفيّة ذات الصّلة باللّغة العربيّة، كان لهم الدّور الرّائد في التّأسيس لِما يمكِن أنْ يشكّل ملامحَ واضحةً لنظريّة النّقد اللّغويّ في التّراث العربيّ الإسلاميّ، سواء بشكلٍ مباشر وصَريح، أو بشكلٍ ضمنيّ ومستخلَص. فقد استطاعوا عَبر مجهودات متفرّقة، ومباحثَ متعدّدة، المساهَمةَ في توجيه مساراتِ النّظر إلى الظّاهرة اللّغويّة، وقضايا تداولها في الخِطاب الفَصيح وتَفعيلها في اتّجاهات من البحث أكسَبتها ملامحَ إنسانيّة خالدة، ومقوّمات بقاءٍ كونيّة، ساهَمت في تحقيق نتيجةٍ ثلاثيّة الأبعاد؛ تَمثّل الأوّل في خدمة النّصّ القرآنيّ وتقريبه من الأفهام والمدارك الإنسانيّة، مع حفظ جلاله البيانيّ المثاليّ المعجِز. وتَمثّل الثّاني في خدمة اللّغة العربيّة، وحفظ مقوّماتها وتحصينها من الضّعف والابتذال والسوقيّة. فبقيَت قويّة صامدة مستمرّة مستوية على سوقها، مشتدًّا عَضُدُها، لا يلحقها الضّعف ولا يحيق بها الهوان. وتَمثّل البُعد الثّالث في قدرة تلكم التّنظيرات والتّخريجات على مُسايَرة أكثر النظريّات اللّغويّة نضجًا وعِلميّة في تاريخ اللّغات البشريّة، والاستعداد للتّواشج ومعانقة آفاق بحثيّة إنسانيّة ممكنة، بقابليّتها الذّاتيّة للانفتاح والتّواصل الفعّال أخذًا وعطاءً.

١ـ النظريّة اللّغويّة وحتميّة وصْل التّراث

تبعًا لِما سلَف، لا يمكِن للباحِث المختصّ، سواء أكان مُنَظِّرًا ونازعًا إلى صِياغة القوانين وتَجريد الأحكام، أمْ كانَ محلِّلًا مُطبِّقًا للمَقولات والمَعايير، لا يمكنه الحديث، في زمننا الرّاهن، عن نظريّة في النّقد اللّغويّ، بل ولا يمكِن أن تتمّ بشكلها الصّحيح، من دُون استيعاب مجهودات هؤلاء الرّوّاد الأفذاذ، الّذين تميزّت مساهماتهم بطابعها الشّموليّ، وبغنَى القضايا والرّؤى الّتي كانوا يصدرون عنها، ويكلّمونها في طرح القضايا اللّغويّة ومعالجتها، في سياق تفسير النّصّ القرآنيّ وتأويله وشرحه وإعرابه وبيان إعجازه.

فقد تضمّنت اجتهاداتهم قضايا كثيرة ومتشعّبة تستمدّ قيمتها وأهميّتها، من كونها تمتدّ لتطلّ على مجالات مختلفة، تستوعب علوم اللّغة والنّحو والبلاغة والنّقد الأدبيّ، كما تتعالَق مع قضايا اللّسانيّات المعاصرة والتّأويليّات، وفلسفة اللّغة والأسلوبيّة الحديثة، ونظريّات الحِجاج، وجماليّات التّلقّي، وكذلك الفلسفة والمنطق وعلم النّفس والاجتماع وغيرها. كما تحوز منظورات هؤلاء قيمتها، من جانب ما تنطوي عليه من قضايا حيويّة وخصبةٍ، تبدو باستمرار قادرة

على أن تُولّد الإشـكالات، وتخلُق أو تُشـعِر بمآزق فكريّة عويصة، تدفع بالقارئ إلى مزيدٍ من البحث والتأمّل وإعمال الفكر، للارتقاء بها إلى مستويات تجعل منهـا قضايا تنظيريّة حقيقيّة، تهمّ المعتقد والهويّـة و(الأنا) الجمعيّ، وتنخرط في إشـكالات أدبيّة وثقافيّة كبرى.

عـلى أنّ أهـمّ مـا يميّـز هذه الجهـود، إمكان النّزوع بها نحو التّجريد والصّورَنة، وتكشّفها عن مسـتويات عليا من التّجريد والنّمذجة التّنظيريّة، رغـم كونها جهودًا منفتحة عـلى مجالات مختلفة ومتباينـة. فهي لا تسـجن نفسـها ضمـن دائرة تخصصيّـة ضيّقة، ولا تقيم الحدود الصّارمة بين المجالات المعرفيّة. ولذلـك فهي تتوقف على وجود إرادة بحثيّـة حقيقيّة وصادقـة، يكون بمقدورها تحويـل الصّياغـة إلى تصـوّر منهجـيّ متكامـل معـاصر، يسـمح بإمكانيّـة الحديث عـن وجود نظريّـة لُغويّة في النّقـد العربـيّ القديم. ويجعل من إنجازات الأقدمين انشـغالات حقيقيّة، يمكن نعتها –بحسب تعبير عبد العزيز حمودة–؛ «بداية لضفيرة نظريّـة في اللّغة أو نظريّـة في الأدب»[1]، تتجاوز حشرها في كونها مجرّد استجابة إشراطيّة للتّأثـير الأرسـطيّ، أو حـدود الانشـغال بالفكر اليونانيّ في الشّعر والخطابة والمنطق.

إنها تصوّرات، يمكن للنّقد المعاصر أن يعتكف على تطويرها واسـتثمارها وتكييفهـا، بما يخدم الاهتمامـات الثّقافيّـة المعاصرة، وبما من شـأنه أن يـردّ ويفحـم تلكـم الآراء والمواقـف المتطرفّة والنشـاز، الّتـي فضّلَـت أن تولّي وجههـا صَوب الدّراسات الغربيّة الحديثة في دراسة النّقد والأدب وتلمـس القيمة الجماليّـة الإقناعيّة في الخطابات، فاستسـلمت لموجات الحداثة المفرطـة وادّعاءات التّجديد، فجاهرت بإعراضها عن ريادة التّراث في التّأسـيس للنظريّة اللُّغويّة والنقديّة المتكاملة. بل أنكرَت أيّة مسـاهمة ممكنـة للمجهودات القديمة في بنـاء النظريّـة اللُّغويّـة والنقديّـة ذات الصّلة بالهوية الثّقافيّـة العربية الرّاهنـة، بحجّة وجود خليـط متداخل من شـذرات نقديّـة متعدّدة غير متكاملة ولا مسـعفة في تبنّيهـا أو الاعتماد عليها لبناء نظريّة لُغويّة أو نقديّة معاصرة، كما الشّـأن هو مع مَن رأى أنّه «يصعب على القارئ أن يجزم بـأنّ هذا النّاقد أو ذاك نمـوذج لُغويّ بحت؛ لأنّهم في الحقيقة قـد خلطوا بين هذه الأمور جميعًا.. في نسيج يصعب استدلال خيط واحد منه، إلّا إذا كان الهدف هو تمزيقه والاستغناء عنه»[2].

٢ـ مركزيّة الشّعر في النّظريّة اللُّغويّة

لقد كان من أهمّ الإجراءات الّتي قام بها العلماء الذّيـن اشـتغلوا بالنّحـو والبلاغة عمومًـا، وبلغُة النّـصّ القرآنـيّ وببلاغتـه وإعجـازه، أنْ أعطوا للشّـعر مكانة خاصّة ولافتة، وجعلـوه في المرتبة

(١) عبد العزيز حمودة، المرايا المقعرة، نحو نظريّة نقديّة عربيّة، عالم المعرفة، ٢٧٢، الكويت، ص ١١ .

(٢) أحمد طاهر حسنين، حول روافد النّقد الأدبي عند العرب: نظرة تحليل وتأصيل، مجلة فصول، العدد الأول، المجلد السّادس، (اكتوبر–نوفمبر–ديسمبر)، ١٩٨٥م، ص ١٢.

الأولى بعد القرآن الكريم، مصدرًا للاستشهاد واستنباط القضايا والقوانين والأحكام المرتبطة بالتقعيد والتنظير، بحثًا عن أفق أرحَب لإيجاد نظريّة لُغويّة عربيّة.

وقد حصل ذلك لإدراكهم أنّ الذّائقة العربيّة مستنبتة في التّربة الشّعريّة، ومتشبّعة بقوانين الشّعر وآفاقه الممتدّة، الّتي من شأنها أن تتيح للتّنظيرَين البلاغيّ والنقديّ مساحةً واسعةً، تغني اللّغة وتفتح أمامها آفاقًا أوسع ومجالاتٍ أرحب. فنحن لا نكاد نصادف بلاغيًّا إعجازيًّا ولا مفسّرًا اشتغلَ بالبيان القرآنيّ، إلّا وله تأكيد صريح على أهميّة الشّعر وقيمته ومركزيّته في الرّواية والاستشهاد. فقد أدركوا أنّه الوسيلة الأولى والطّريق المثلى لحفظ تاريخ الأمّة وصيانة هويّتها. لذلك كانت الإرهاصات الأولى لتشكّل ملامح النّقد في التّراث العربيّ الإسلاميّ تنطلق من محوريّة الشّعر في التّفكير والاشتغال. إنّ الشّعر كما ينقل ابن سلام الجمحيّ (ت ٢٣١هـ)، كان بالنسبة إلى العرب منذ الجاهليّة «ديوان علمهم ومنتهى حكمهم به، يأخذون وإليه يصيرون»[٣]. وفي هذا الشّأن تروى القول المشهورة عن عمر بن الخطاب: «كان الشّعر علم قوم لم يكن لهم علم أصحّ منه»[٤]. تبعًا لذلك، كانت الكتابات النقديّة الأولى تحتفي أيما احتفاء بالشعر وضروبه وطبقات الشّعراء ومنازلهم، ومرويات الشّعر الطّوال والقصار والنتف من القصائد. فكان الفقهاء والإعجازيون وعلماء اللّغة على حد سواء، يعقدون أبوابًا من كتبهم لبيان فضيلة الشّعر وأهمّيّته، كما هو الشّأن مع ابن رشيق مثلًا؛ فهو يعقد بابًا في فضل الشّع[٥]، ويبيّن فضله وأهمّيّته، ويورد كثيرًا من أشعار الخلفاء والفقهاء والقضاة، وهو يصرّح بتفضيله الشّعر على النّثر، «لأنّ كلّ منظوم أحسن من كلّ منثور من جنسه في معترف العادة». ويبيّن دور الشّعر في الحياة، ومساهمته في حماية القبائل وانتصاراتها في الحروب، ودفع المضارّ ورَدّ الخصومات[٦].

ويشير ابن قتيبة (ت ٢٧٦هـ) إلى ما يؤكّد أهمّيّة المادّة الشّعريّة في علاقتها بالعلوم والمعارف الأخرى، فيبيّن أنّ منتقياته من الشّعر والشّعراء في مؤلّفه المعروف، إنّما كان قائمًا على مَدى رواج البضاعة الشّعريّة بين العلماء في الحقول المختلفة: «وكان أكثر قصدي للمشهورين من الشّعراء، الذّين يعرفهم جلّ أهل الأدب، والّذين يقع الاحتجاج بأشعارهم في الغريب وفي النّحو وفي كتاب اللّه عزّ وجلّ، وحديث رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله وسلّم»[٧].

(٣) ابن سلام الجمحي، طبقات الشّعراء، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠٠١م، ص ٣٤

(٤) طبقات الشّعراء، ص ٣٤

(٥) ابن رشيق، أبو علي الحسن، العمدة في محاسن الشّعر وآدابه ونقده، تحقيق محمد محي الدّين عبد الحميد، دار الجيل، بيروت، ص ٥.

(٦) العمدة، ص ٥.

(٧) ابن قتيبة (أبو عبد اللّه محمد بن مسلم)، الشّعر والشعراء، تحقيق وشرح أحمد محمد شاكر، دار المعارف، (د.ت.)، ج.١، ص ٥٩.

ومَـن يتتبّع كتاب «المزهر» للسّـيوطيّ[٨]، يجد أنه قد حفل بشـواهد نثريّة وشعريّة كثيرة جدًّا، ومـن مختلَف المواضيـع والعصـور الأدبيّة. وقد اعتمد السّـيوطيّ في مزهره العديـد من المصادر، كالخصائـص لابـن جنّـي، وأمالي القـالي، وأمالي ثعلـب، ونـوادر أبـي زيـد، والصّاحبـيّ في فقـه اللّغـة لابن فـارس... وغيرهم، وكلّهـا يأخذ عنها استشهادها بالشّـعر واسـتثماره في التّخريجات اللُّغويّة، وفي بيـان القواعد والقوانين والأسـاليب التّعبيريّـة البلاغيّة. بل إنّه يعقـد مبحثًا مطوّلًا في معرفة الشّعر وأحوال الشّعراء، ودَوره في معرفة اللّغـة والتّنظـير لها: «قـال ابن فارس: والشّـعر ديـوان العرب، وبـه حُفظـت الأنسـاب، وعُرفت المآثـر، ومنه تُعُلِّمت اللّغة، وهو حجّة فيما أشـكَل من كتاب اللّه، وحديث رسـول اللّه صلّى اللّه عليه وآلـه، وحديـث صحابتـه والتّابعـين »[٩]. فتبدو معرفة الشّـعر محوريّة في فهـم كتاب اللّه، وتعلُّم اللّغـة وأفانينها، بل يغدو الشّـعر هو الفيصل في معضلات الغريب والمشكل من المعاني والألفاظ.

وللغرض نفسـه أعطى عبد القاهر الجرجانيّ أهميّـة كبرى للشّـعر في دلائل الإعجـاز، لأنّه رأى أنّ معرفة الإعجاز متوقّفة على ضبط اسـتعمالات اللّغة الفنّيّة وانحرافاتها عن الأصل المباشر. يقول: «إنّ هاهنا دقائق وأسرارًا، طريق العلم بها الرّويةُ والفكـرُ، ولطائفَ مسـتقاها العقُـل، وخصائص معـانٍ ينفرد بها قوم قد هُدوا إليها، وكُشِـف لهم عنها، وأنّها السّـبب في أنْ عرضت المزيّة في الكلام، ووجب أن يفضّل بعضه بعضًا.. حتّى ينتهي الأمر إلى الإعجاز، وإلى أن يخـرج من طوق البشَر»[١٠]. فكان المعترضون على الشّعر بِمَثابة المعترِضين على كتـاب اللّه، لأنّهم يعترضون على طريق فَهم كتاب اللّـه وإدراك فَصاحَتـه. يقول: «إذا كنّـا نَعلم أنّ الجهة الّتي منها قامـت الحجّة بالقرآن وظهرَت، هي إن كان على حدٍّ من الفصاحة تقصُر عنه قُوى البـشر، ومنتهيًـا إلى غايةٍ لا يُطمـح إليها بالفكر، وكان محـالًا أن يُعرف كونه كذلـك، إلّا مَن عرف الشّعر الّذي هو ديوان العرَب، وعنوان الأدَب»[١١]. لأنّـه كان «ميـدان القوم إذا تجـاروا في الفَصاحة والبَيـان، وتنازعـوا فيهمـا قصـب الرّهـان»[١٢]. لذلك يسـتنتج أنّ الزّهد في معرفة الشّعر وتعلُّمه، والاعتراض على أهمّيّته، إنّما هو طريق للاعتراض على تعلّم كتاب اللّه وإدراك أسراره، فكان «الصّادّ عن ذلك صادًّا عن أن تُعرَف حجّة اللّه تعالى »لأنّه بمثابـة «مَن أعدمك العِلم بأنّ فيه شـفاءً، وأنّ لك فيه استبقاءً»[١٣].

هـذه الأهمّيّة الّتي أعطيت للنّصّ الشّـعريّ من لـدن البلاغيّـين والإعجازيّـين ومفـسّري القرآن، وكلّ اللُّغويّـين ونقّـاد الأدَب وغيرهم، كانت كذلك بوصفه طريقًا لفَهم القرآن الكريم، ووسيلةً فضلى

(٨) المزهر في علوم اللّغة وأنواعها، جلال الدّين السّيوطي، المكتبة العصرية، بيروت، ٢٠٠٧.
(٩) المزهر، ج٢، ص ٣٥٦.
(١٠) عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، مكتبة الخانجي؛ القاهرة، ط٢، ١٩٨٩م.ص ٧.
(١١) دلائل الإعجاز، ص ٨.
(١٢) دلائل الإعجاز، ص ٩.
(١٣) المصدر نفسه، ص ٩.

لاكتساب الأهليّة الفنّيّة لإدراك أسرار الفَصاحة القرآنيّة الخالدة.

وقد كان من نتائجها الرّائدة أن ارتبطت الأسُس الأولى للنّظريّة النّقديّة اللُّغويّة بمقوّمات الجَمال والإمتاع، وسارَت في اتّجاه البحث في أسرار ومقوّمات الكلام الممتِع والجميل والمؤثّر، وهو ما جعلها مرتبطةً بالإنسان ومؤمنةً بحاجاتِه ومتطلّباتِه الذّوقيّة. وهو بلا شكٍّ عنصرٌ ضامِن لبقاء النّظريّة واستمرارها، لأنّها تكونُ مرتبطةً بالإنسان ومراعيةً متطلّبات «القارئ العامّ.. ومتطلّعة للتّواصل الإنسانيّ الرّحب»[١٤].

٣ـ النّظريّة اللُّغويّة ورهان الجَودة والتّحسين.

لا يَخفَى أنّ إجراءَ المشتغلين بالدّرس القرآنيّ، حينما ربطوا المعايير اللُّغويّة والبلاغيّة بالقول الشّعريّ، إنّما كان إجراءً واعيًا ورائدًا، فهو يكشف عن بُعد نظَر يرنو إلى حِفظ اللّغة على مرّ العصور، إذ كان من نتائجه الاستراتيجيّة الكبرى، أن سارت النّظريّة اللُّغويّة والنّقديّة في الاتّجاه الجماليّ التّأثيريّ، الّذي قاد إلى الاهتمام بالقول الفَصيح وبالجَميل الّذي تَستعذبه الذّات فردًا وجماعة، وتتعارفه الذّائقة العربيّة العامّة.

والحقّ أنّنا عندما نتتبّع مفهوم البلاغيّة والأدبيّة في التّداول العربيّ، وفي استعمالاته اللُّغويّة، نلفي أنّه مفهوم لا ينفصل عن معاني جودة التّوصيل وابتغاء التّأثير. وهو يرتبط دائمًا بمعاني التّحسين والتّجويد، لضمان النّجاح في التّبليغ. فـ«(بلغ بلاغة وبلاغة): فصحَ وحسنَ بيانُه فهو بَليغ. و(أبلغَه الشّيءَ وإليه): أوصلَه إليه. و(البلاغ): التّبليغ، ومنه: {هَذَا بَلَاغٌ لِلنَّاسِ} وما يُتوصّل به إلى الغايةِ. و(البلاغة) حسنُ البيان وقوةُ التّأثير. و(عند علماء البلاغة): مطابقةُ الكلامِ لمقتضى الحال مع فصاحتِه»[١٥]. وهي عند الشّريف المرتضى تَرِد مقترنةً أبدًا بالفصاحةِ والبراعة وجَودة الكلام[١٦].

ويتّسع مفهوم البلاغة ليشمل إضافةً إلى حُسن التّوصيل والإفهام، كلَّ ما يحقّق الإطرابَ والإمتاعَ ويغذّي مشاعرَ التّلذّذ. يشير إلى هذا أبو حيان التّوحيديّ فيقول: «أمّا البلاغة فإنّها زائدة على الإفهام الجيّد بالوزن والبناء والسّجع والتّقفية والحلية الرّائعة... وهذا الفنّ لخاصّة النّاس. لأنّ القصد فيه الإطراب بعد الإفهام»[١٧]. ومعلوم أنّ الإطراب لا يمكن أن يتحقّق، ما لم تكن المادّة المعروضة عليه، على درجة لا يُستهان بها من الإتقان والصّنعة والحُسن.

وفي الاتّجاه نفسه يتأطّر تحديدُ الخطيبُ القزوينيّ، الّذي يتحدّث عن فصاحة الكلام وبلاغته، فيَرى أنّها خاصّيّات فنّيّة لا تتحقّق له إلّا

(١٤) محمد مشبال، أسرار النّقد، (مقالات في النّقد والتواصل)، مكتبة سلمى، تطوان، ط.١، ٢٠٠٢م، ص ١٧.

(١٥) المعجم الوسيط، مجمع اللّغة العربية، المكتبة الإسلامية للطباعة والنشر والتوزيع، ج ١، ص ٧٩– ٨٠ .

(١٦) الشّريف المرتضى ، طيف الخيال، تح.حسن كامل الصّيرفي عيسى الحلبي، القاهرة، ١٩٦٢م. ص ٣٩ .

(١٧) أبو حيان التّوحيدي، المقابسات، دار المدى للطباعة والنشر، تحقيق علي شلق، ط١، بيروت، ١٩٨٦ م، ص ٣٩٢

إنْ هو حافظَ على التّناسُق المطلوب، وهي «خُلوصُه من ضَعف التّأليف وتنافر الكلِمات والتّعقيد مع فصاحتها»[١٨].

كما أنّ المتكلّم نفسَه لا يمكن أنْ يستحقّ صفتَي الفصيح والبليغ ما لم يراعِ الكيفيّة المطلوبة في القول، وما لم يَحُز ملَكة الإجادة: «وأمّا فصاحة المتكلّم فهي ملَكة يُقتدَر بها على التّعبير عن المقصود بلفظٍ فصيحٍ. فالملَكة قسمٌ من مقولة الكيف الّتي هي هيئة قارّة لا تقتضي قِسمة ولا نِسبة. وهو مختصّ بذوات الأنفُس راسخٌ في مَوضوعه»[١٩]. فشرطُ البلاغة إذَنْ في علاقته بالمنشئ، راجعٌ إلى توفّر المتكلّم على «ملَكة يقتدرُ بها على تأليف كلامٍ بليغ »[٢٠]. وهذا من شأنه أن يجعَل الممارسةَ اللُّغويّة موسومةً بلا شكّ، بسِمات داخليّة وذاتيّة تستنجِدُ الخِبرة والتّجربة والإحساسَ الشّخصيّ قبل أيّ شيءٍ آخر.

وغير عازبٍ عن الذّهن أنّ النّظريّة اللُّغويّة والأدبيّة، وهي تقترن بالصّنعة وحسن البناء، تغدو واقعةً في صميم عمليّة النّظم كما عرَضَها عبد القاهر الجرجانيّ. وهي عمليّة عليها مَدار المفاضلة بين الخطابات من جانب، وبين منشئي الخطابات أنفسهم. فهي عمليّة يُستفتَى فيها الفِكر والعَقل. ويُلتمس فيها أيضًا التّحسين وجودة الصّنعة. فـ «هذا النّظم الّذي يتواصفه البلغاء وتتفاضل مراتب البلاغة من أجله، صنعة يُستعان عليها بالفِكرة لا مَحالة»[٢١]. إذ تغدو عمليّة النّظم أهمّ سِمة ترشّح الكلام كي يستحقّ صفة البلاغيّ أو الفصيح. فبلاغيّته وجماليّته في نظمه، ونظمه في تحسينهِ وصَنعته وتجميلِه، بما «يجعلك تأبى أن تَقنع إلّا بالتّمام وإن تربّع إلّا بعد بلوغ الغاية»[٢٢].

وبهذا تكون النّظريّة اللُّغويّة والبلاغيّة متشرّبة الكُنه الجماليّ. وذلك بما يستطيع أن يوفّره الخِطاب من إمكانات إمتاعيّة إقناعيّة تغذّي القلبَ والعقل معًا، وتتوجّه إلى الشّعور. أي أنّ بلاغيّة العمل تغدو مُعَايَنَةً بقياس مَدى قُدرته على أن «يملأ صدرًا، ويمتع عقلًا، ويؤنس نفسًا»[٢٣].

ولمْ تَخرج إسهامات الجاحظ عن ابتغاء التّحسين والصّنعة في الخطاب، فهو يرى أنّ الشّخص الفصيح المحسوب على البيان العربيّ، هو «الّذي قد تعبَّد للمعاني وتعوَّد نظمها وتنضيدها وتأليفها وتنسيقها واستخراجها مِن مَدافنها وإثارتها من مكامنها»[٢٤]. وهي عمليّات صنعة البديع الّذي يوازي في أهمّيّته مسألة النّظم عند الجرجانيّ. فالبديع هو الخاصّيّة الّتي ميّزت أمّة

(١٨) الخطيب القزويني، الإيضاح في علوم البلاغة، دار إحياء العلوم، ط،١٩٨١، ص ٩ .
(١٩) المصدر نفسه ، ص ١٢ .
(٢٠) المصدر نفسه ، ص ١٥ .
(٢١) دلائل الإعجاز، ص ٥١ .
(٢٢) المصدر نفسه ، ص ٣٧ .
(٢٣)عبد القاهر الجرجاني، أسرار البلاغة ، تحقيق محمد عبد المنعم خفاجي وعبد العزيز شرف، دار الجيل، بيروت ١٩٩١م، ص ٥٥ .
(٢٤)أبو عثمان عمرو ابن بحر الجاحظ ، البيان و التّبيين، تحقيق وشرح عبد السّلام محمد هارون، دار لفكر للطباعة والنشر والتوزيع، دون تاريخ، ج ٤، ص ٣٠ .

العرب، وبه تميّز كلامهـا وتفرّد. يقول: «والبديع مقصـور على العرب، ومن أجلـه فاقت لغتُهم كلّ لغة، وأربَت على كلّ لسان»[٢٥].

ويتحصّـل مـن مما سـبق أنّ النّظريّة اللُّغويّة وهـي تتأسّـس في منظور العلماء الّذين اشـتغلوا بالدّرس القرآنـيّ وبالفصاحة والإعجاز، على مبدأ التّحسين والتّجويد وابتغاء الصّنعة، ضمنت بذلك لنفسـها البقاء والاسْتمراريّة والقُرب من الإنسانِ، الّذي فُطِر على الجَميـل والجَمال. وهو مبدأٌ أبقَى المباحثَ اللُّغويّةَ حيّةً ومتحرّكةً وخصبةً، مرتبطةً بتطلّعات الإنسـان وبنُشـدانِه الكمالَ وبحثِه عن الأفضل والأحسن.

٤ـ النّظريّة اللُّغويّة والسّمْتُ الحِجاجيّ

وبالقدر ذاته ارتكزت النّظريّة اللُّغويّة النّقديّة لدى العلماء المسـلمين إلى شـقٍّ آخَر، لا يقلّ أهمّيّة عن الشّقّ الجماليّ، وهو الشّقّ الحِجاجيّ الإقناعيّ، مِـن خـلال منظوراتِهـم إلى أيّ خِطابٍ إنسـانيّ، بجميـع أصنافـهِ وأنواعـهِ، على أنّـه ذو مقوّمات حجاجيّة. فقد ذهبوا إلى أنّ كلّ خطاب مسؤول إلّا وينبثق أساسًا من نظرة لا تؤمن بتجزيء الإنسان إلى حـسّ من جهـة، وإلى فِكر من جهـة ثانية، أو إلى عاطفـة من جهة وعقلٍ من جهـة ثانية. وإنّما تراه كلًّا واحدًا لا يتجزّأ. لذلك وجدناهم يحاولون بناء منظومةٍ نقديّةٍ لُغويّةٍ بلاغيةٍ، يتعانق فيها كلّ من الجمـاليّ والحجاجيّ، أو الفكـريّ والتخييليّ. فالفكـريّ يحـضر في الخطـاب الأدبـيّ مثلًا، من خلال اخـتراق المعرفـة السّـائدة في العصر، ومن خـلال العمَل عـلى إنتاج معرفةٍ موسـومة بالقلَق إزاء الإنسان والمَصير، وإزاء الحياة والمَوت والغَيب، وإزاء الدِّين والقِيَم والأخلاق والمسلَّمات، وإزاء كلّ المشـكلات الّتـي يواجهها الإنسـان، الّذي يختلف في مقاربتهـا والنّظـر إليهـا مـن واحـد إلى آخَر. فهو أبدًا هاجس الكشـف عـن الحقيقة ومحاولة معرفة الذّات والعالم. ومن جهة أخرى هو خِطاب إبداعيّ تخييليّ تصويريّ، محكوم بقوانينِ الكتابة الجماليّـة، الّتـي تهدِف إلى خَلق المُتعـة في المتلقّي وإشباعه فنّيًّا[٢٦].

ولـم يكـن روّاد اللّغة والبلاغـة والنّقد العربيّ الأوائـل، ليتغافلوا عـن هذه الحقيقة. فقـد أجْلَوا أهمّيّة الجـدل والحِجاج في الخطاب بشـكل عامّ، ونبّهوا إلى ضرورة الانتبـاه إلى هذه الوظيفة الّتي تشمل النّثر والشّعر معًا.

فالجاحظ في تنظيراته البلاغيّة لضبط مقوّمات البيان العربـيّ، نجده لا يعير الخِطـاب قيمتَه إلّا بالنّظـر إلى وظيفتـه التّواصليّة، ومـدى تأثيره في المتلقّـي. فالبيـان عنـده «اسـمٌ جامعٌ لـكلّ شيءٍ

(٢٥) المصدر نفسه ، ص ٥٥ – ٥٦ .

(٢٦) من الطّريف أن نشير إلى أن جذر كلمة فكر في أصل اشـتقاقه يعود إلى ما يرتبط بالنفـس والقلب قبل العقل، وهو يعني إعمال الخاطر في الشّيء، أي ما يخطر في القلب أو الهاجس. إذن أن نفكر هو أن نتأمل بقلوبنا . أما العقل فهو في أصل اشـتقاقه راجـع إلى جهة الأخلاق ، فهو يمنع صاحبه من الزّيغ و يرده عن الهوى والانحراف و التّورط في المهالـك . وعلى هـذا يكـون الفكر مزيجا مـن الحدس والتأمل.
ينظر:علي سعيد أدونيس ، الشّعرية العربية، ط ٤، ٢٠٠٦ م، دار الآداب، بيروت، ص ٧٦.

كشـفَ لـك قنـاع المعنى، وهتـك الحجـاب دون الضّمير... لأنّ مدار الأمر والغاية الّتي إليها يجري القائـل والسّـامع إنّما هي الفهـم والإفهام. فبأيّ شيءٍ بلغـتَ الإفهـامَ وأوضحتَ عـن المعنى فذلك هو البيـان في ذلـك المَوضع»[٢٧]. ويـرى أنّ مدار جميع المرْوِيّات والمأثـورات في البيان والبلاغة من كلام الفصحَـاء والخطبَاء والبلغَاء، إنّما هو راجعٌ إلى «الفهـم ثـمّ الإفهـام والطلَب ثـمّ التّثبّت»[٢٨]. كما يشـنّع ويسـتقبح على المتكلّـم، أن يعجز عن الإفصاح والبيان، ويجد نفسَه مضطرًّا إلى التّكلّف أو التّصنّع: «ومدار اللّائمة ومسـتقرّ المَذمّة حيث رأيـتَ بلاغـةً يخالطها التّكلّـف، وبيانًـا يمازجُه التّزيّـد»[٢٩]. بل إنّه يشـير صراحة إلى خطورة أن تخـون القائل الحجّـة في الكلام، وهو ما يسـمّيه بـ«العـي من اختـلال الحجّة»[٣٠]. فهـو بحاجة إلى «تمييز وسياسـة وترتيـب ورياضة وتمام آلة وإحكام صَنعة»[٣١].

وجميع ما يستشـهِد به الجاحظُ في كتابه ممّا قاله العرب، يحـوز قيمته من وظيفتـه التّداوليّة الإقناعيّـة بشـكل أسـاس. ولعـلّ إشـاراته إلى خصائص الخطيـبِ وصفاتِه الجسـديّة وملَكاته الذّهنيّة، سواء أكانت إيجابيّة؛ تمنح خطابه القبول والفهـم وتنجـح غايـات التّأثير فيه، مـن حلاوة القول وحـذق العبارة ومراعاة المقام، أم سـلبيةً؛ تسيء للخطاب وتهـدّده بالتّلَف، كالعـي واللّكنة وخفوت الصّـوت... إلخ، فهـي جميعها داخلة في مورد الاهتمام بالخِطاب، منظورًا إليه من الزّاوية الحجاجيّة الإقناعيّـة. يقول: «أوّل البلاغة اجتماع آلة البلاغة، وذلك أن يكون الخطيب رابط الجأش، ساكن الجوارح، قليل اللّحظ، متخيّر اللّفظ، لا يكلّم سيّد الأمة بكلام الأمّة ولا الملوك بكلام السّوقة»[٣٢].

وهـذا ابـن وهب الكاتب يخصّـص عنوانين؛ (الجـدل والمجادلـة) و(أدب الجدال) مـن كتابه (البرهان)[٣٣]، للحديث عن هذا الجانب في الخطاب؛ يقول في مسـتهل باب (الجـدل والمجادلة): «وأما الجدل والمجادلة فهما قول يُقصد به إقامة الحجّة فيمـا اختلف فيه اعتقـاد المتجادلَين. ويُسـتعمل في المذاهـب والدّيانات وفي الحقـوق والخصومات والتّنصّل مـن الاعتذارات. ويدخل في الشّـعر وفي النّثر»[٣٤]. حيـث يتبيّن الحضور البيّن والشّـامل لوظيفـة الحِجـاج الإقناعـيّ في هذين الجنسـين الكبيرين في الثّقافة العربيّة.

ويشـير حـازم القرطاجنّـيّ (ت ٦٨٤هـ) إلى اشتراك الخطابة والشّعر في الإقناع والتّخييل. فهو الهدف المتمثـل في «إعمال الحيلـة في إلقاء الكلام من النّفس بمحلّ القبول لتتأثّر بمقتضاه»[٣٥]. إذ تبـدو الوظيفة الحجاجيـة مرتبطة بالقول في حد

(٢٧) الجاحظ ، البيان و التّبيين ، ج ١ ، ص ٧٦.
(٢٨) المصدر نفسه ، ج ٢ ، ص ٣٩ .
(٢٩) المصدر نفسه ، ص ١٣ .
(٣٠) المصدر نفسه ، ص ١٢ .
(٣١) المصدر نفسه ص ١٤ .
(٣٢) المصدر نفسه ، ج ١ ، ص ١٨٢ .
(٣٣) ابن وهب الكاتب، البرهان في وجوه البيان ، بغداد ، ط١ ، ١٩٦٧م.
(٣٤) البرهان ، ص١٢٢ .
(٣٥) حازم القرطاجني ، منهاج البلغاء ، تحقيق محمد الحبيب بلخوجة ، تونس ، ١٩٦٦م، ص٣٦١ .

ذاته. والّذي يقوم على التّزيين بصور اللّغة للتّأثير في المتلقّـي إقناعه. فتزيين الـكلام بأيّ مظهر من المظاهـر التّواصلية، يشـكّل في حدّ ذاتـه «قوّة في المعنى والبيـان، حتّى يتسـنّى للمتكلّم من خلال هذه القوّة، تمريرَ مواقفه وأطروحاته»[٣٦].

لقـد كان عصَـب النظريّـة اللّغويّـة البلاغيّة والنّقديّـة في الـتّراث العربيّ الإسـلاميّ مبنيًّا على كيفيّـة التّأثـير بالجميـل الحسَـن، وبالمقنـع من الحجّة، للتّوجيه والتّغيير الخارجيّين، وهذا شـكّل مَنفذًا مهمًّا، وجّه الاهتمامات بالشّأن اللّغويّ، على امتـداد تاريخ اللّغـة العربيّة الطّويـل، أي ضبَط محاولات وسـبُل النّفـاذ إلى نفسـيّة المتلقّي، عبر الخطـاب اللّغـويّ والأسـاليب التّواصليّة الممكنة، من أجل دَفعِه إلى الفعل، أو الكفّ عنه، بعد جَعلِه يعتقدُ معتقداتٍ ويتخلّى عن أخرى، بالتّوسـل بما هو متاح من أساليب الإقناع حتّى ولو كان المجال مجال تخييل مَحـض. يقول صاحب المنهاج: «إن التّخيّـل هو قـوام المعاني الشّـعريّة، والإقناع هو قـوام المعاني الخطابيّة، واسـتعمال الإقناعات في الأقاويل الشّـعرية سـائغ، إذا كان ذلك على جهة الإلمـاع في المَوضع بعـد المَوضع، كمـا أنّ التّخاييل سائغ استعمالها في الأقاويل الخطابيّة في المَوضع بعـد المَوضـع. وإنّما سـاغ لكليهما أن يُسـتعمل يسـيرا فيمـا تتقـوّم بـه الأخـرى، لأنّ الغرض في الصّناعتـين واحـد، وهو إعمـال الحِيلـة في إلقاء الكلام من النّفوس بمحلّ القبول لتتأثّر بمقتضاه. فكانت الصّناعتـان متآخيتَين لأجل اتّفاق المقصد والغرض فيهما. فلذلك سـاغ للشّـاعر أن يخطُب لكن في الأقلّ من كلامه وللخطيب أن يشـعر، لكن في الأقلّ من كلامه»[٣٧].

وعلى هذا المنوال سارت النّظريّة اللُّغويّة تنظر إلى الخطـاب اللُّغويّ مهمـا كان نوعه، بوصفه ذا وظيفـة مزدوجة؛ فهو من جانـب ذو بُعد جماليّ إمتاعيّ تحسـينيّ. وهو من جانب ثـانٍ حِجاجيّ مقنِع، يتوجّه إلى متلقٍّ لإحداثِ تَغييرٍ ما في نفسيّته ومواقفه ومعتقداته.

ويشير ابن سينا (ت ٤٢٨هـ)، في معرض حديثه عن القياس عند الفلاسـفة، إلى أنّ جميع الأقاويل، بكلّ أصنافها وأنواعها، تشـترك في اعتماد الضّمير والمثال، نظـرًا إلى قيمتهما الحجاجيّة ووظيفتهما الإقناعيّة؛ «ويشترك المثال والضّمير في أنّ كلّ واحد يفيد إقناعًا، أيْ يجعل شـيئًا لـم يقتنع به مقتنعًا به»[٣٨].

بل إنّ النّظريّة اللُّغويّة عند ابن سينا تُفصح عن طابِعها الإنسـانيّ لارتباطهـا بالوظيفة في الحياة الاجتماعيّـة. بالنّظر إلى طبيعة اللّغة التّشـاركيّة، القائمة على تفاعل النّاس بالكلام، ويكون مؤدّاها تحقيـق النّفع وجلب الحُسـن. فالظاهرة البلاغيّة

(٣٦) عبد السّلام عشير، عندما نتواصل نغير، مقاربة تداولية معرفية لآليات التّواصل و الحجاج، أفريقيا الشّرق ، ٢٠٠٦م، ص ١٢٣.

(٣٧) حازم القرطاجني ، منهاج البلغاء ، ص ٣٣١ .

(٣٨) ابن سينا أبو علي الحسين بن عبد اللّه تلخيص الخطابة من كتاب الشّفا. تح. محمد سليم سالم. المطبعة الأميرية، القاهرة ١٩٥٤م، ص ٣٩. وكذلك ص ٣٦ – ١٦٧ .

عنـده صناعة عظيمة، «لأنّ الأحكام الصّادقة فيما هـو عدل وحسـن أفضل نفعًـا وأعم عـلى النّاس جـدوىً مـن أضدادها. وذلـك لأنّ نوع الإنسـان مستبقىً بالتّشارك، والتّشارك محوجٌ إلى التّعامل والتّجاور. والتّعامل والتّجاور محوجان إلى أحكام صادقـة في الأمـور، بمـا ينتظم شـمل المصلحة. وبأضدادها يتشـتّت. وهـذه الأحـكام تحتاج إلى أن تكـون مقـرّرة في النّفوس... فإحـدى فضائل هـذه الصّناعة غناؤها في تقريـر هذه الأغراض في النّفوس»[٣٩].

وهـي الوظيفـة نفسـها مـع الجرجانـيّ الّذي يجعـل التّمثيـل في الخطـاب ذا وظيفـة تداوليّة مزدوجة؛ فهو من جانبٍ ذو وظيفة شعريّة، ومن جانب آخـر ذو وظيفة حجاجيّـة: «واعلمْ أن ممّا اتفـق العقـلاء عليه أنّ التّمثيـل إذا جاء في أعقاب المعانـي، أو بـرزت هـي باختصـار في معرضه، ونقلت عـن صورها الأصليّة إلى صورته، كَسـاها أُبَّهة، وأكسـبها منقبةً، ورفع من أقدارها، وشـبّ من نارها، وضاعف قواها في تحريك النّفوس لها، ودعا القلوب إليها، واستثار لها من أقاصي الأفئدة صبابـة وكلفًا. وقسر الطّباع عـلى تعاطيها محبّةً وشغفًا»[٤٠].

(٣٩) ابن سينا ، الخطابة من كتاب الشّفا ، ص ٢٢ .

(٤٠) عبد القاهر الجرجاني ، أسرار البلاغة ، تح. محمد رشيد رضا، دار المعرفة ،بيروت، ١٩٨١م ، ص ٩٣.

* عبر عنه محمد العمري ب(لذة المعرفة ولطف المفارقة) وفسر ذلك عند الجرجاني بالمرجعية الفلسفية وتأثيراتها فيه. خاصة سياق الصّراع بين أنصار العقل وأنصار الحس، أنصار الطّبع و أنصار الصّنعة، المدافعين عن سلطة المحافظة والمحتكرين لعمود الشّعر وبين المؤولين للإبداعات الجديدة.
البلاغة العربية أصولها وامتداداتها، إفريقيا الشّرق، بيروت، لبنان، ١٩٩٩م، ص ٣٩٧ .

٥ـ النّظريّـة اللُّغويّـة مـن الـتّراث إلى آفـاق الإنشائيّة المعاصرة

لعلّ مِن مَظاهر ريادة العلماء المسلمين القدماء في تأسيسـهم للنّظريّة اللُّغويّة ومحاولاتهم ضبط قوانـين صَنعة الـكلام، أنّ منجزاتهـم عن طبيعة الخطـاب الفصيح، ومقوّمـات التّواصُـل البَليغ، وحقيقـة الخِطـاب اللُّغويّ المتأرجِـح بين صورةٍ مثاليّـة مجرّدة وقـارّة، وصورةٍ بلاغيّـة متحرّكة ومتغيّرة، مرتبطة بالإنجاز والتّداول، وعلاقة اللّغة بالمتكلّم، ووظائفها الجماليّة والإقناعيّة الحجاجيّة، كلّ ذلك يلتقي مع الاتّجاهات الكبرى المعاصرة في الإنشـائيّة الغربيّة، الّتي تتّفق مختلَف اتّجاهاتها عـلى التّمييز بين اللّغـة المعياريّة المبـاشرة، وبين اللّغـة الجماليّة أو الانزياحيّـة. نجد ذلك مع روّاد الأسـلوبيّة المعاصرة في الغرب. كما هو الشّأن مع رومان جاكوبسـن وجان كوهن ومجموعة (Mu) واجتهـادات م. ريفاتـير و م. باختين وغيرهم من الذّين اهتمّوا بالبحث في الصّورة اللُّغويّة وبسُـبل تجويد العبارة وتحسـين الصّياغـة، لفظًا وجملةً ونصًّا ممتدًا، فالبلاغيّة عندهم مرتبطة التّحسـين والتّجويـد. فعنده. بليث «البلاغة فنّ، والفنّ يعني هنا الصّنعة» [٤١]. وعند رائد الأسلوبيّة م. ريفاتير هي «النّظر إلى النّصّ باعتبـاره نتاجًا فنّيًّا وليس

(٤١) هنريش بليث، البلاغة والأسلوبية، نحو نموذج سيميائي لتحليل النّص، ترجمة محمد العمري، إفريقيا الشّرق، ١٩٩٩، ص٣٢.

فقط بصفته متوالية تعبيريّة»[٤٢]. وهي بذلك تردّ قرينــة التّصوير الفنّيّ وعمليّات التّنظيم والتّركيب بالنّظــر إلى الكلمة الأجنبيّــة:(Fingere)[٤٣]. وتُحيل إلى معانــي التّقليد والتّمثيل والمُحــاكاة (Imitri)[٤٤]. كمــا تُحيــل إلى معاني السّــموّ والرّفعــة والتّعالي بالنّظر إلى كلمة (Imago)[٤٥].

وفي آفــاق هذه المعانــي والدّلالات مضت عديد من المدارس السّــيميائيّة واللّســانيّة، في النّظر إلى مفهــوم البلاغيّة والأدبيّة. فالصّــورة البلاغيّة عند هــ. بليث مثلًا، هي «الوحدة اللّسانية الّتي تشكّل انزياحًا. أو نســقًا مــن الانزياحات اللّســانيّة[٤٦]. وما يســمّيه هذا الــدّارس، بــ «البلاغــة الحقّة»أو «روح البلاغــة »أو «الصّــورة البلاغيّــة»، جميعها قضايا يحدّدها - اســتنادًا إلى جــيرار جينيت- في أنّهــا "كلّهــا كامنــة في الوعي بفجــوة ممكنة بين اللّغة الواقعيّة (لغة الشّاعر)، ولغة محتملة (الّتي يحتمــل أن يســتعملها التّعبير البســيط والعامّ)، تلك الفجــوة الّتي يكفي أن تقــوم في الذّهن لكي يتــمّ تحديــد فضــاء للصّــورة»[٤٧]. هــذه الأخيرة مقصودٌ بها الصّورة الجماليّة الّتي تحوز قدرًا من التّحســين والصّنعة. وهو ما يزكّي مقولة ارتباط البلاغــة بابتغاء القول الجميل ونُشــدان الخطاب المؤثّــر بصنعته وفنيّتــه. كما لا يمكننــا أن نُغفل علاقة التّحسين بما يسمّيه ف. مورو بــ«الفعاليّة الخياليّة »أو«الخيال الخلّاق الّذي يفكّك كلّ الخَلق ويخلــق.. في الأعماق البعيدة للنّفس، عالمًا جديدًا.. يتيح الإحساس بالجِدّة»[٤٨].

فتبدو تَخريجات هؤلاء الرّوّاد من نقّاد الإنشائيّة الغربيّة ومنظّريّ الأســلوبيّة المعاصِرة بمَدارسها المختلِفــة، في تأكيدهــا القِيمة الجماليّــة وإثباتها عنصر التّحســين في القول، كأنّها تســتعيد بشكل مــن الأشــكال مقوّمات بلاغيّــة وأدبيّــة الخطاب كمــا تحدّدت ملامحهــا في النّظريّــة اللُّغويّة الّتي عرضنا لأُسُسها مع عُلماء العربيّة القدماء ودارسي الخِطاب القرآنيّ.

خاتمة:

نخلُــص مــن كلّ مــا ســبّق إلى حَقيقــة أنّ النّظريّة اللُّغويّة كما تشــكّلت مع علماء التّفســير واللُّغويّــين والإعجازيّــين وغيرهــم، انطــوَت على ملامِح مــن التّماسُــك والقوّة لارتباطهــا بجوانب إنسانيّة ذات الصّلة بحاجاته إلى الجَمال ونُشدانه الكمال، ولارتباطهــا بحقيقته بوصفهِ كائنًا عاقلًا يُقنــع ويَقتنع. مَلامــح نظريّة تَــشي بقُدرتها على البقــاء والاســتمرار، مثلما تبــدو قابِلــة للتّطوير

(٤٢) ميكائيل ريفاتير، معايير تحليل الأسلوب، ترجمة حميد لحميداني، منشورات دراسات (سال)، ط١، دار النّجاح الجديدة، البيضاء، ١٩٩٣م، ص ٢٠.

(43) Tzvetan Todorov ,Théories du symbole ,Ed : Seuil,Paris, 1977, p. 118

4 Roland Barthes, rhétorique de l'image, Communications 4, Ed.Seuil, Paris, 1964, P.4.

(٤٤) رولان بارت، البلاغة القديمة، ترجمة عبد الكبير الشّرقاوي، نشر الفنك، البيضاء، ١٩٩٤م، ص ١٠٦.

(٤٥) المرجع نفسه، ص ١٠٦

(٤٦) البلاغة والأسلوبية، ص ٦٦.

(٤٧) المصدر نفسه، ص١٠٣

(٤٨) فرانسوا مورو، البلاغة، المدخل لدراسة الصّور البيانية، ترجمة محمد الولي وعائشة جرير، أفريقيا الشّرق، البيضاء،٢٠٠٣، ص ٩٠.

والاســتثمار. ومِن ثمّة فلا مَناص مِن الانفتاح على الــتّراث، والدعــوة إلى ضرورة فحصه وتمحيصه. غير أنّ هــذا الانفتاح لا يُلزم الباحث بالتوقّف عند مضامينه وقضاياه، مِن أجل فهمها واســتيعابها فحسْــب، بــل لِجَعــل عمليّــة الفَهم والاســتيعاب مقدّمة لتأسيس مَشروعات جديدة لمْ يبلورها هذا التّراث، أو لــم تكُن قد تهيّأت لهــا شروط التّبلور بَعد. ولعلّ أومبرتو إيكو إذ دَعا إلى أهمّيّة الانفتاح على الــتّراث، فإنّــه كان يدرك محوريّتــه في توليد الأســئلة والتّشريع لاهتمامات جديدة، هي ليســت بالضّرورة مــصرّح بها ســابقًا، لكنّها بالضّرورة تحمِل قابليّة الاســتثمار والتّوظيــف. يقول إيكو: «إنّ قضيّــة تطويــر الفِكر وتَجديده، لا تســتلزم بالــضّرورة رفض الماضي وتحييــده، بل إنّنا نعيد فحصه ليسَ لمجرّد أنْ نعرف ما قيل تمامًا، وإنّما مِــن أجــل أنْ نَعرف الأشــياء الّتــي كانَ يمكن أنْ تُقــال، ومِن أجــل أنْ نعرف ما يمكننــا قولُه الآن، استنادًا إلى ما قد قيل سلفًا»[٤٩].

(49) U.Eco, Sémontique et philosophie du language, Puf, 1988, p.13

المَصادر والمَراجع:

أولا) المصادر

-أبو حيّان التّوحيدي.

-المقابسات، دار المدى للطباعة والنشر ، تحقيق علي شلق، ط١ ، بيروت، ١٩٨٦ م.

-أبو عثمان عمرو ابن بحر الجاحظ.

-البيان والتّبيين، تحقيق وشرح عبد السّلام محمد هارون، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع ، (د.ت) ، ج ٤.

ـ ابن سلام الجمحي.

-طبقات الشّعراء، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠٠١م.

-ابن رشيق، أبو علي الحسن.

-العمدة في محاسن الشّعر وآدابه ونقده، تحقيق محمد محي الدّين عبد الحميد، دار الجيل، بيروت.

-ابن قتيبة (محمد بن مسلم).

-الشعر والشعراء، تحقيق وشرح أحمد محمد شاكر، دار المعارف، (د.ت،)، ج.١.

-ابن سينا أبو علي الحسين.

- تلخيص الخطابة من كتاب الشّفا. تح. محمد سليم سالم. المطبعة الأميرية، القاهرة ١٩٥٤م،

-ابن وهب الكاتب.

-البرهان في وجوه البيان ، بغداد ، ط١ ، ١٩٦٧م.

حازم القرطاجني.

منهاج البلغاء ، تحقيق محمد الحبيب بلخوجة ، تونس ، ١٩٦٦م.

الخطيب القزويني،

الإيضاح في علوم البلاغة ، دار إحياء العلوم ، ط١ ،١٩٨١م.

عبد القاهر الجرجاني.

دلائل الإعجاز، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط٢ ، ١٩٨٩م.

أسرار البلاغة، تحقيق محمد عبد المنعم خفاجي وعبد العزيز شرف، دار الجيل، بيروت ١٩٩١م.

(مجمع اللّغة العربية)،

المعجم الوسيط، الإدارة العامة للمعجمات وإحياء التّراث، المكتبة الإسلامية للطباعة والنشر والتوزيع..

ـ محمد مشبال.

أسرار النّقد، مقالات في النّقد والتواصل، مكتبة سلمى، تطوان، ط.١، ٢٠٠٢م.

ـ السيوطي جلال الدّين.

المزهر في علوم اللّغة وأنواعها، شرح وتعليق محمد أبو الفضل إبراهيم، محمد جاد المولى وعلي محمد البجاوي، المكتبة العصرية، بيروت، ٢٠٠٧م.

ـ الشريف المرتضى.

طيف الخيال، تح. حسن كامل الصّيرفي عيسى الحلبي، القاهرة، ١٩٦٢م.

ثانيًا) المراجع :

١ـ باللغة العربية والمترجمات

- رولان بارت.

-البلاغة القديمة، ترجمة عبد الكبير الشّرقاوي، نشر الفنك، البيضاء، ١٩٩٤م.

-عبد السّلام عشير.

-عندما نتواصل نغير، (مقاربة تداولية معرفية لآليات التّواصل والحجاج)، أفريقيا الشّرق، ٢٠٠٦م.

- عبد العزيز حمودة.

- المرايا المقعرة، نحو نظرية نقدية عربية، عالم المعرفة، ٢٧٢، الكويت.

- علي سعيد أدونيس.

-الشعرية العربية، ط ٤، ٢٠٠٦م، دار الآداب، بيروت.

- فرانسوا مورو،

-البلاغة، المدخل لدراسة الصّور البيانية، ترجمة محمد الولي وعائشة جرير، أفريقيا الشّرق، البيضاء،٢٠٠٣م.

- ميكائيل ريفاتير.

- معايير تحليل الأسلوب، ترجمة حميد لحميداني، منشورات (سال)، ط١، دار النّجاح الجديدة، البيضاء، ١٩٩٣م.

-هنريش بليث.

-البلاغة والأسلوبية، نحو نموذج سيميائي لتحليل النّص، ترجمة محمد العمري، إفريقيا الشّرق، ١٩٩٩.

المجلات:

مجلة فصول، (حول روافد النّقد الأدبي عند العرب: نظرة تحليل وتأصيل)، أحمد طاهر حسنين، العدد الأول، المجلد السّادس، (اكتوبر-نوفمبر-ديسمبر)، ١٩٨٥م.

٢ ـ المراجع الأجنبية

Tzvetan Todorov ,Théories du symbole ,Ed :- .Seuil,Paris, 1977

Roland Barthes, rhétorique de l'image, - .,Communications 4, Ed.Seuil, Paris, 1964

U.Eco, Sémontique et philosophie du lan- guage, Puf, 1988